تتمّاً للرسالة البابوية « Casti connubii »

بحث اخلاقي لاهوتي

للاب شرل ابيلا اليسوعي

١

منشأ الزواج من الله وضعاً وطبعاً

توطئة

الله

لكلمة الزواج معنيين مختلفين ، وان متلازمين متناسبين . فتدلّ اولًا على حالة ما وهي حالة المنخرطين في سلك الزواج ؛ وثانياً على ما تنشأ عنه مباشرةً هذه الحالة ، وهو العقد الزواجي.

ثم ان العقد هذا يأتي على ضربين : فهو إمّا عقد طبيعي محض وهذه هي واقعيته اذا ما أُبرم بين شخصين من غير المسيحيين ، وإمّا سرٌّ من اسرار البيعة السبعة وهذه هي صفته اذا ما أُبرم بين مسيحيَّين.

على ان التقسيم هذا لا يترتّب عليه كون الزواج المسيحي يُمكن فيه الفصل بين العقد والسر . بل كلاهما متلازمان ، لا سبيل الى التفريق بينهما ؛ وانما هما ، على ما سنوضح لك ، حيثيّتان لشيء واحد. فالعقد هوَ هوَ السرّ ، والسرّ هوَ هوَ العقد ، ولا يستطيع مسيحيّان ان يعقدا زواجاً صحيحاً ما لم يقتبلا بنفس الفعل سرًّا حقيقيًّا ، ولا ان يقتبلا سرّ الزواج حقيقياً ما لم يعقدا زواجاً صحيحاً.

ومن اهمّ الاسباب في تميز هاتين الحيثيّتين الشيء الواحد أن يتمكن الذهن من حصر النظر ملياً في كل منهما على حدة ، فيستوعب الموضوع تماماً ويفيه حقّه من البحث.

وواقع الحال أنّ الزواج قبل ان يرفعه سيدنا يسوع المسيح الى مقام سرّ حقيقي ، كان له بين البشر وجود وضعيٌّ وطبيعيٌّ معاً . اما الوضعي فلانه من وضع الخالق ، عزّ وجلّ ، في الفردوس الارضي . واما الطبيعي فلتأصله ، حتى بمعزل عن الوضع الالهي المذكور ، في اسس الطبيعة البشرية . فيكون ، والحالة هذه ، مُنشأ من الله ايضاً ، لانّ الطبيعة ، بما فيها من الاصول ولها من المقتضيات ، هي ايضاً من خلق الله ووضعه . أجل انّ الاله الفادي ، اذ اعاد الى الزواج رونقَ وضعيته الاولى وجعله سرّاً ، رقّاه وزاده قداسةً سامية وكمالاً رفيعاً وقوةً تفوق الطبيعة . الّا انه ، جلّت حكمته ، لم ينتزع شيئاً من اركانه الطبيعية . فلم تزل هذه ، ولن تزال ، على ما كانت عليه من قبلُ في كنهها وما يترتب عليه من الاحكام والسنن .

ومن ثمّ تتضح خطورة البحث في الزواج ، حتى المسيحي منه ، ليس من حيث هو سرٌ فحسب ، بل من الوجهة الطبيعية على حدة . فمن شأن هذا البحث ان يمهد السبيل للذهن الى تعليل الشرائع الزواجية ، حتى الوضعية ، في كلا العهدين العتيق والجديد ، كما في احكام الحق القانوني ، حتى فيما كان منها تهذيبياً بحتاً . ومَن أحسنَ تعليل السنن أتقن ولا شكّ فهم مرْدَاها . ومن فوائد البحث المذكور ايضاً تمييز الغثّ من السمين فيما قد تدّعي به السلطة الزمنية من الحقوق في الشؤون الزوجية ، ممّا يتسنى به للعقل السليم ان يحكم عن صواب في صحة او بطلان ما تقدم السلطة المذكورة على سنّه من القوانين في الموضوع عينه كالاملاق والزيجة المدنية وما شاكلهما .

هذا الذي لم نجد بدّاً من ان نقدّمه على ابحاثنا التالية ، تمهيداً لها ودفعاً للالتباس في معاني الاوضاع ، لا قصدَ الجزم سلفاً ، بدون ما برهان ، بالحقائق التي اضطرّنا سياق الكلام في توطئتنا هذه الى ذكرها كما لو كانت ثابتةً بذاتها تستغني عن حجج تدعمها . على ان هذه الحجج ستأتي كل واحدة منها في وقتها ومكانها .

واوّل ما يتناول بحثنا هو اصل الزواج ومنشأه : اهو الهيّ ام بشريّ ، من وضع الخليقة ام الخالق ؟

١ً تعليم الكنيسة في اصل الزواج

الزواج ، على ما حدَّه ارباب اللاهوت ، هو عقد به يخوّل الرجلُ المرأة ، وهي اياه ، حقاً شرعياً متبادلًا باتيان الافعال اللازمة لولادة البنين وتربيتهم ، فيتقيّدان معاً بواجب الاشتراك في معيشةٍ ثابتةٍ واحدة[1].

قلتُ : « ثابتة واحدة » نفياً للطلاق ، وتعدّد الزوجات ما دامت الزوجة الاولى حيةً ، طبقاً للشرع المسيحي، على ما سيأتي الكلام مفصّلًا عنه في بابه. على انه ليس في واقع الحال أمةٌ راقيــة ، أيًّا كان دينها ، الّا وتقتضي من الثبات على العقد الزواجي ما لا مندوحة عنه ، إلّم يكن لتحريم الطلاق وتعدّد الزوجات ، ففي الاقل لدفع الالتباس بين ما يعــدّه المتمدّنون زواجاً صحيحاً شرعياً وما هو معروف ومستقبح لديهم من ضروب التخالط (promiscuité) والقران الطليق (union libre) والحبّ المتّق (amour libre) . وانما محور البحث هنا على الزواج الحقيقي ، هل هو من وضع البشر ام من وضع الله ؟

من وضع الله ، اي ١ً : هل اصل الزواج في شريعة وضعية صريحة سنّها الله ، عزّ وجل ، والزم بها البشر ؟ هذا هو التعليم الكاثوليكي . ثم ٢ً : اذا مــا ضربنا صفحاً عن الوضع الالهي المذكور ، افــلا يبقى الزواج شريعةً طبيعيةً مبنيةً على طبيعة الاشيــاء ، وبالتالي سنّــةً ، هي ايضاً من الله مبدع الطبيعة وكل ما فيها ومنها ، فتقيّد الضمير من قبلــه عزّ وجلّ ، على منوال سائر النواميس الطبيعية برمّتها . وهذا ايضاً يصرّح به التعليم الكاثوليكي ، فضلًا عن الفلسفة الحقّة

قال بيوس الحادي عشر في رسالته العامة « *Casti connubii* »: «انّ الزواج ليس البشر هم الذين وضعوه او اعادوه الى حالته الاولى ، بل انما الله هو الذي فعل ذلك . وانه ليس البشر هم الذين سنّوا شرائعه واثبتوه ورفعوا منزلته ، بل الله مبدع الكون ، والسيد المسيح مجدّد هذا الكون ذاته . فهذه الشرائع

١) راجع Chr. Pesch S. J. *Compend. Theologiæ Dogmaticæ*, tom. IV, p. 254 – Aloys. de Smet, *De Sponsalibus et Matrimonio*, ed. 3ia. tom I, pp. 58-62

اذن لا تتعلق بارادة البشر اية كانت ، حتى ولا باي اتفاق يعقده الزوجان نفسهما مخالفاً لتلك الشرائع »[1]

اجل لا تنكر « انه وان يكن الزواج بطبيعته قد وضعه الله تعالى ، فان للارادة البشرية نصيبا فيه. وهو نصيب شريف للغاية ، لان كل زواج بمفرده ، من حيث هو اتحاد هذا الرجل وتلك المرأة ، لا يتم الا باتفاق كلا الزوجين ورضاهما الاختياري . فان فعل الارادة الحر الذي به يسلم كل من الطرفين الآخر حق الزوجية الخاص ويستلمه منه[2] هو ضروري لعقد الزواج ، الى درجة انه لا تستطيع قوة بشرية اية كانت ان تقوم مقامه[3] . على ان هذه الحرية لا يُناط بها الا الاستثبات مما اذا كان المتعاقدان يريدان أن يعقدا زواجاً حقيقيا وان يعقداه مع شخص معين . »[4]

ويقول البابا ايضاً : « ذلك هو تعليم الكتب المقدسة . تلك هي تقاليد الكنيسة العامة غير المنقطعة . »[5]

٢ً شهادة الكتاب المقدس بوضعية الزواج الالهية

ولا غرو فانَّ هذا التعليم قد صرّح به الروح القدس في صدر الكتاب المقدس . ثمة لدينا ، في الفصلين الاولين من سفر التكوين ، حديثان عن نشأة الزواج ووضعه من الله تعالى . فالحديث الاول مختصر ينسبه علماء النقد الى النص الكهنوتي (*document sacerdotal*) والآخر مطول ينسبونه الى النص اليهوي (*document Yahviste*) .[6]

---

١) ص ٣ من ترجمة الرسالة المذكورة للمطبعة الكاثوليكية ، وهي الترجمة التي نحيل اليها القارئ كلما ذكرنا الرسالة « *Casti connubii* »

٢) راجع الحق القانوني العام مادة ١٠٨١ ، فقرة ٢.

٣) راجع المادة ذاتها ، فقرة ١.

٤) الرسالة *Casti connubii* ص ٣-٤.

٥) الرسالة ذاتها ، ص ٣.

٦) راجع مقال مانجنو في سفر التكوين ، في قاموس اللاهوت الكاثوليكي لنائبه فاكان ومانجنو ، المجلد الثاني ، ع ١١٨٩-١١٩٥ .

واليك النصين :

ـ ا ـ تكوين ١ : ٢٧-٢٨ : « فخلق الله الانسان على صورته ، على صورة الله خلقه . ذكراً وانثى خلقهم . وباركهم الله وقال انموا واكثروا واملأوا الارض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوان الدابّ على الارض . »

ـ ب ـ تكوين ٢ : ١٨-٢٤ : « وقال الربُّ الاله لا يحسن ان يكون الانسان وحده . فأصنع له عوناً بازائه . . . فأوقع الرب الاله سباتاً على آدم فنام فاستلّ احدى اضلاعه وسدّ مكانها بلحم . وبنى الرب الاله الضلع التي اخذها من آدم امرأةً فاتى بها الى آدم . فقال آدم : ها هذه المرّة عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي . هذه تُسمّى امرأة لانها من امرىء أُخذت . ولذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً . »

وفي الانجيل القديس متى (١٩ : ٤ـ٥) ينسب سيدنا يسوع المسيح هذا القول الاخير الى الله ذاته ولا ينافيه رأي من ينسبه من المفسّرين الى آدم مُلهَماً من الروح القدس ، او الى مؤلف سفر التكوين مُلهَماً ايضاً من الروح عينه .

وعلى كل فظاهرٌ من الآيات الكتابية المذكورة انّ الله ذاته هو واضع الزواج . فهو ، جلّ وعلا ، يتجلّى في الفردوس بنوع يفوق الطبيعة ، كما يبدي حكمه في امر الزواج ، ويصوّره لنا على ما يبتغيه ، ويسنّ لنا سنّته . هو الذي لم يشأ ان يترك ، ولا يوماً واحداً ، اتحاد الرجل والمرأة ، على شاكلة سائر العقود البشرية المحضة ، عرضةً للتقلب والانفكاك ، بل منذ البدء دخل بين المتعاقدين كما يطبّق العهد بينهما على ما رسم في خطته الصمدانية . وهو الذي يحدّد صريحاً غاية القران ببركته الفعّالة وقوله : انموا واكثروا واملأوا الارض . هو الذي يلزم الزوجين بحياة مشتركة ثابتة بين الطرفين وحدهما بدون ما ثالث ، من حيث ان الرجل عليه ان يترك اباه وامه ليلزم وحده امرأته وحدها فيصيران اثنين في جسد واحد [1] .

---

١) راجع Mgr d'Hulst, *Conférences de N.-D.*, 1894, 2e conférence, éd. de l'Enseignement Chrétien, pp. 3-4.

هذا هو مؤدّى الآيات المنزلة المذكورة على ما يُثبته التقليد المسيحي المتواصل. بل على ما فسّر السيد المسيح بذاته. فانه بعد ان ذكر في الانجيل نصّ سفر التكوين الذي نحن في صدده ، قال مستنتجاً : « فليسا هما (اي الزوجان) اثنين بعد ولكنهما جسد واحد . وما جمعه الله فلا يفرّقه انسان . »[1] والمعنى الصريح انه ، وان كان المتعاقدان بشرَين ، الا ان الجامع بينهما هو الله والرابطة التي توثقهما هي سنّة الهية.

تلك هي حالة القرينين الناشئة ضرورةً عن العقد الزوجي . وقد جاء حدُّها ، في كتب الشرع القديم ، على ما يلي : « هي الاتحاد الزوجي للرجل والمرأة ، بين شخصين اهلين شرعاً ، يقيدهما بحياة مشتركة فردة. »[2] تُرى هل تختلف حالة القرينين ، على ما تبدو في التحديد هذا ، عنها ، على ما جاءت موصوفة في الآيات التكوينية والانجيلية المذكورة ، سوى ما في نصّ هذه من الوضوح الذي يكاد يكون فجّاً.

٣ شهادة القرائن الكتابية

ولك ايضاً في قرائن الآيات التي اوردناها آنفاً من سفر التكوين ، ما يؤيّد التعليم المسيحي التقليدي في وضعية الزواج الالهية . فما من احد يتلو الفصلين الاولين من السفر المذكور ويعمل الفكرة ملياً في كامل مضمونهما ، الّا ويتبين التباينَ العظيم الذي شاء الله ، في الخطة التي رسمها لخلقه ، ان يكون بين البشر والبهائم ، فيما يتعلق بايجاد النسل وانماء الانواع . فمن جهة نرى قراناً ثابتاً مقصوراً على رجل واحد وامرأة واحدة . ومن اخرى الاختلاط والتنقّل على حسب ظروف انما تطرأ اتفاقاً وعرضاً.

قال موسّره : « ان الله ، بعد ان ثبّت اسس الارض ورتّب اصولها ، اراد ان يُزيّنها فخلق فيها القوى الحية التي امرها ان «انمي واكثري» . فكان هذا القول الوجيز قصيداً مستهلّاً ، في السهول والاهوية والجبال واعماق المياه ، لافراح القران عامةً ، وقد سبقت ظهور البشر بازمنة طويلة ، من التحام الزهور

١) متى ١٩ : ٦ .
٢) *Institut.*, I, 9.

بالزهور مستترًا في اجواف كؤوسها المعطرة ، وتلاقي الاحياء المتحركة بينما تتوقع إما الرفيق وإما الرفيقة ، واتحاد الازواج وانماء الحياة ، الى غير ذلك مما يكمن باجمعه اسرارًا غامضة جليلة ، لما اودعه الله من قدرته التي لا حدّ لها ومن حياته الازلية المحيية . . . »

« على ان السرّ هذا يتسامى على مدى سموّ الحياة في كل كائن . وانما كان الله قد زيّن الارض كيما يعدّها لاقتبال ملكها . فاستحضره ، عزّ وجل ، في ذهنه قائلًا : « لتصنع الانسان ، لتصنعه كي يتسلط . » وقد صنعه على صورته ومثاله عظيماً جميلًا كاملًا الى حدّ ان الاحياء جميعها لم تلبث ان أتت عند قدميه تُقر بسلطته وتُوسم منه بالاسماء التي تلائمها . ومع ان لدى الانسان هذا كلّ ما تقتضيه السلطة فان الله قد رأى وحكم « انه لا يحسن ان يكون الانسان وحده ولا بدّ ان يُعطى عوناً شبيهاً به . . . »

« ترى من اين يأتي هذا العون ؟ — امن الطين الذي خرج منه الرجل ؟ — كلّا — فانّ الانسان لا يكون ، كمثل الله ، المبدأ الوحيد الاول للحياة في ذريته ، ما لم يُستلّ من عنصره ذاك الكائن البشري المعدّ رفيقاً له . فقال الرب : « نَمْ يا ابني نَمْ » وعلى اثر قوة خفية المية ، اضطجع آدم على زهور الفردوس ، وهوجم بسبات سري . وفي اثنائه استل الله احدى اضلاعه وكساها لحماً وانعشها بغير نفسه . فبنى منها المرأة ، خطيبةً للنائم بهيةً نقية . فقامت تنتظر متذهلةً من الحياة الحديثة التي أُعطيتها . . . الى الزفاف ! الى الزفاف . الا استيقظ يا مليك العالم ! — فهبّ آدم من النوم واخذ يشاهد بعينيه تلك التي كان قد بصرّ بها في حلم نبوي فادرك ان له فيها تمام كماله . فهو الذهن وهي القلب . هو الفكر وهي الشعور . هو الجلال وهي الظرف . هو القوة وهي الدعة . هو السلطة وهي الجاذبية . هو باذر الحياة وهي الارض الخصيبة حيث تذرّ الحياة . فأعجب بها وجعلت تستميله عاطفة الحنان ويستفزّه عامل الهوس . ومن قلبه المفعم حباً جديداً تدفّق القصيد الزوجي المأثور ، الذي به اوحى الى العالم المستقبل ماهية الزواج وشرائعه المقدسة . قال : « هذه عظم من عظامي ولحمٌ من لحمي . هذه تسمى باسم يُشتق من اسم المرء لانها أُخذت

منه : ولذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امرأته فيصيران اثنين في جسد واحد . » والى هتاف الحبّ هذا اجاب الله ببركة منها انبجس الجنس البشري وبها سلّطه على الكائنات التي كان قد سبق فباركها وانمى نسلها . قال عزّ وجلّ : « اثمروا واكثروا واملأوا الارض ولتخضع لكم فتتسلطوا على كل ما تحتويه . . . »

« كذا تمّ الزواج الاول الامثل . . . ذاك هو العقد الزواجي بموضوعه وغايته وسببه ، مما يمكنني ان ادرك الفرق بين البركتين اللتين بهما اشرك الله الاحياء بما له من القدرة لايجاد الحياة . »

« فللنبات والحيوان لم يقل سوى : « اثمروا واكثروا » . وحسبُ . فانّ الزهرة الساكنة الصامتة تدع ، بدون ما تشعر ، لقاحها ينتثر او يُنتزع منها . والحيوان ينقاد قهراً للنواميس الغريزية التي تدفعه الى ملاقاة رفيقة ما . . . واما الرجل والمرأة اللذان يندفعان بعاملَي العقل والقلب لاختيار شريك لهما في الحياة ، الرجل والمرأة اللذان انما يبذلان الذات عن اختيار وتماماً ، الرجل والمرأة اللذان يعلمان انهما شريكان لله تعالى في عمل الخلق ، الرجل والمرأة اللذان يفقهان الشرف العظيم الحاصل لهما اذ يلدان من هو شبيههما ، الرجل والمرأة اللذان يتكتلان ويتبادلان كمالهما في الجماعة الزوجية ، الرجل والمرأة اللذان لا يرتبطان بوصال حيواني بل بزواج حقيقي ، فاستوجب الله لهما بركةً اوسع وارفع شأناً . »

« ومن اجل هذا سمعتموه من حين يرفع القرينين البشريين الى اوج الطبيعة ، فيسلطهما على العالم بينما يمدهما بكثرة النسل ويأمرهما بانمائه ، قال : « اثمروا واكثروا واملأوا الارض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوان الدابّ على الارض . »[1]

وهو الفرق الموصوف بين البهائم والبشر ، الذي جهله التطوريون فضلّوا .

(1 Monsabré, *Exposition du Dogme Catholique*, Carême 1887, 5e Edition, pp. 6-10, 15-16.

(للمقال صلة)